



شارك الأميركي جيمس أليكس، مرتکب عملية الدهس ضد المتظاهرين المناوئين للعنصرية في فيرجينيا، الملايين حول العالم الذين يضعون رئيس النظام السوري بشار الأسد الى جانب أدولف هتلر وغيره من خانة الطغاة الدمويين، لكن هذا الأميركي النازي الجديد يستلهم هؤلاء الطغاة ويشير إعجابه بهم، تماماً كمواطنه ديفيد بيكوك القائد السابق لحركة «كلوكس كلان» المدافعة عن «تفوق البيض» الذي كتب في تغريدة: «الأسد يحل مشاكل - الموت لداعش وجميع داعميه. هل من مشكلة لأميركا في ذلك؟... قد لا تكون لأميركا مشكلة مع «الموت لداعش» لكن يتبيّن أن لديها بالتأكيد مشكلة مع «داعميها» أو بالأحرى صانعيه، لأن «داعش» شارلوتسفيل البيض بدأ أكثر شفافية من «داعش» الرقة ودير الزور في إظهار من يلهمهم. وكما لو أن المصائب تستدرج المصطلحات نفسها في أي مكان، فإن حاكم ولاية فيرجينيا اعتبر النازيين الجدد «دخلاً» وخطابهم بقوله: «لا مكان لكم هنا. لا مكان لكم في أميركا». وفي ذلك تذكرة بموقف الأميركي متكرر مفاده بأن «لا مكان للأسد ولا لعائلته في مستقبل سورية».

غداة الاضطرابات والمواجهات في الشارع بين الأميركيين وأميركيين، كان الوسط السياسي مجمعاً على أن رد فعل دونالد ترامب لم يكن بمستوى خطورة الحدث. دُعي الى «تسمية الشرّ شرّاً»، وقيل له: «هؤلاء عنصريون بيين وهذا إرهاب داخلي» (الсенاتور الجمهوري كوري غاردنر)، وقيل أيضاً إننا «لم نحارب هتلر لكي ترتع الأفكار النازية هنا في الوطن من دون أن يتصدّى لها أحد». لكن الأمر بالنسبة الى ترامب، الذي ساوى بين العنصريين والمحتجين ضدّهم، يُختصر بأن لهؤلاء القوميين والعنصريين البيض فضلاً في انتخابه رئيساً وأنهم قاعدهه الشعبية الصلبة التي تتململ من التلاؤ في تنفيذ السياسات المنظرفة التي حددتها خلال حملته، حتى أن تداولها هاشتاغ (#ترامبروسيا) يبطن إعجاباً بفلاديمير بوتين بمقدار ما يستنكر التحقيقات التي تكّلّب ترامب وتعوق انطلاقته. ولعل الترويج لصورة الأسد بالباس العسكري مع التعليق «الذي لا

يُهُزِّم» يشير الى «القدوة» المبتغاة التي كان تراسب جنباً أي انتقاد خلال حملته، لكنها تتناقض كلّياً مع الأوصاف المقدّعة (ومنها «هذا حيوان») التي استخدمها تراسب لاحقاً في الحديث عن رئيس النظام السوري غداة الهجوم الكيماوي على خان شيخون. ربما تنبه قاعدته الآن الى أن الأسد (أو بوتين، أو على خامنئي) فعل ما يلزم!

قد لا يكون هناك تواافق تامٌ بين سياسات روسيا وإيران وأميركا – تراسب وسوريا – النظام، إلا أن شعارات العنصريين الأميركيين في القاعدة الترامبية تؤشر الى تماهٍ في نقطة واحدة على الأقل: العداء للعرب والمسلمين، وقد يقال لـ «الإسلاميين» بمعنى «الجهاديين»، ثم يتولى التعميم والتبسيط دمج أولئك جميعاً تحت سقف واحد: الإرهاب. ومع أن تراسب أطلق عهده باحتضان مفرط لزمرة التطرف في حكومة إسرائيل، إلا أن قوميّي قاعدته وعنصريتها يتناقضون معه بـ «العداء لإسرائيل» أو «السامية» وفقاً للمصطلح الإسرائيلي، ويلتقون مع الأسد وخامنئي ظناً بأنهما معاديان فعلاً لإسرائيل. والحال أن أحد أهم الدوافع لمنع إسقاط الأسد، وبالتالي لترويج الإبقاء عليه، كان ولا يزال تأييد إسرائيل استمراره، بل التقاءها مع إيران على أن مصالحهما (مع روسيا وأميركا)، وليس مصلحة سوريا، تقضي باستمرار الأسد في منصبه.

أسد «دواعش» الرقة ودير الزور للأسد خدمة العمر، فهو والإيرانيون سهّلوا وجودهم وأرشدوهم الى الموضع المناسب لتخريب الانتفاضة الشعبية السورية داخل مناطقها ومن ثم دمغها بـ «الإرهاب»، حتى قبل انتشارهم غداة سيطرتهم على الموصل. وها هم «دواعش» فيرجينيا يقدمون الى الأسد خدمة عظيمة في لحظة مفصلية، إذ يتلقون مع حلفائه وأعدائه وهم موشكون على التوافق نهائياً على بقائه في السلطة، بغض النظر عن أي قيم قانونية أو سياسية أو حتى إنسانية. إذاً فقد أصبحت سوريا الساحة الخارجية الوحيدة التي يلبي فيها تراسب «طموحات» ناخبيه القوميين والعنصريين، والمكان الوحيد في العالم الذي قرر الأميركيون والروس أن يتعاونوا فيه، متزاوزين استعصاءات قضيّي التدخل الروسي في الانتخابات واتصالات معاوني تراسب مع علماء بوتين. بل إنها المكان الذي أتاح فيه نظام الأسد هبوط طائرات الشحن الإيرانية محملة الصواريخ والأسلحة ومساحة شاسعة لمستودعات تخزينها، وهي أيضاً المكان الذي منح فيه الروس ترخيصاً لإسرائيل كي تضرب موقع الإيرانيين وأتباعهم، وإن كانت الطائرات الإسرائيلية تغير ليلاً أو فجراً ابتعاد التمويه والسرية فقد أصبحت تتصف في أي وقت وأمكن دمشقين كثيرين أن يصوّروا نحو الثانية بعد ظهر الأربعاء (01/08/2017) دخان غارة على موقع الغزلانية المحاذي لمطار العسكري القريب من دمشق، وأن يرسلوها الى أصدقائهم في الخارج مع ملاحظة: «غارة إسرائيلية على إيرانيين بالشام. صارت اعتيادية».

هذه الغارات لم تمنع الإيرانيين من متابعة خططهم، بل إنهم تعايشوا معها وابتكرموا أساليب لخداع المخبرين الذين يبلغون إسرائيل عن وصول شحنات أسلحة جديدة وعن مواعيد نقل معدات الى «حزب الله» في لبنان. والاعتقاد السائد أن إسرائيل لم تعد تستطيع تقليل دور الإيراني الذي بات مدمجاً بدور النظام نفسه، تحديداً في النشاط العسكري، لكنها تحاول فقط حصره في نطاق جغرافي لا يزعجها، وقد مكّنتها مشاركتها في هندسة اتفاق جنوب غربي سوريا من إبعاد الإيرانيين الى حدود دمشق. بموازاة ذلك، أدى اتفاق «خفض التصعيد» في الغوطة الشرقية، كما يلاحظ الدمشقيون، الى حضور أكبر للشرطة الروسية في العاصمة. وعلى رغم تعاظم التدخلات وعجز النظام عن التأثير في تقطيع خريطة الجبهات فإن عسكرييه لم يعودوا قلقين، بل يرددون أنهم صاروا أخيراً متأكدين من أنهم «نجحوا» في تحقيق هدفهم، بدليل أن الجميع يتحدث عن ضرب الإرهاب ويعتبره الأولوية. والأهم أن أطرافاً كثيرة أحيت الاتصالات عبر الأجهزة أو طلبت إقامة قنوات

وراء الستار تدور منافسات بين العواصم الأوروبية وعلى استرضاً روسيا وحتى إيران، فالكل يريد صفقات مع طهران ولا يمانع مسairتها في مصير الأسد، والكل يتطلع إلى حصص في ورشة إعادة الإعمار ويعلم أن موسكو باتت مهيمنة على الملف. وبالتالي، فالكل يتصرف على أن الصراع الداخلي قد حُسم، وبما أن تفويضاً أميركياً منح عملياً إلى روسيا المتتبعة بالأسد، فهذا يبرر للرئيس الفرنسي أن يجامِل بوتين بإطلاق رسالة اعتراف بـ«شرعية» الأسد، فباريس تريد أن تحفي مصالح كانت لها في سوريا، وليس أفضل من رئيس لا يغول ولا اشتراكي لتجاوز الاعتبارات الأخلاقية السياسية. ومع أن الأميركيين عارضوا بشدة، في اجتماع عقد في بروكسل، اقتراحات أوروبية بإعادة فتح السفارات في دمشق باعتبار أن إغلاقها «كان خطأً» إلا أن إعادة تأهيل السفارة الفرنسية بوشرت فعلاً. قبل ذلك، كانت ألمانيا ولا تزال سباقاً إلى تنشيط اتصالاتها مع النظام على مستويات متعددة، والنمسا أيضاً، كذلك إيطاليا التي ستتمثل في معرض دمشق الدولي. الدول تعتمد على رجال أعمال، وقد غدا أحد المهرّبين المعروفين الطفل المدلل في عواصم كثيرة، فبعدما كان صلة الوصل لسمسرة تجارة النفط والقمح بين «داعش» والنظام وبين «داعش» والأتراب، ارتقى بسرعة ليصبح عراب فك التجميد عن أرصدة للنظام في أحد البنوك الأوروبية بشرط ضمانه صفة قمح بـ150 مليون يورو. وأخيراً، بات هذا المهرّب يكُلّ بنقل رسائل وأدوار سياسية.

في غضون ذلك، تستعد كارلا ديل بونتي للاستقالة من «لجنة التحقيق الدولية حول سوريا» التابعة للأمم المتحدة. سبق أن قالت عن الأسد إنه «واحد من أسوأ المجرمين في التاريخ»، وتقول الآن إن لديها أدلة كافية لإدانته، لكنها محبطة لأن عملها بات «غطاء لمجتمع دولي لا يقوم بشيء على الإطلاق»، فلجنة التحقيق قامت بعملها ولديها اتهامات للنظام والمعارضين لكن يتعين إنشاء محكمة خاصة لمجري الحرب و«هذا تحدياً ما تمنع روسيا حصوله» باستخدامها «الفيتو» في مجلس الأمن. أما خلاصتها فهي أن العدالة ممنوعة في سوريا و«من دون عدالة لن يكون سلاماً أبداً، وبالتالي فلا مستقبل»....